المسلمون في أقريطش

أ . د عبد الرزاق الطنطاوي

مما لا شك فيه أن البحر الأبيض المتوسط تمتّع منذ أقدم العصور بموقع جغرافي ممتاز ، استهوي كل القوي التي ظهرت علي شواطئه في أن تثبت وجودها فيه ، وان تكمل السيطرة عليه ليكون لها النفـــوذ والهيمنة علي الدول التي تطل عليه .

وفي عصرنا الحاضـر يلعب هذا البحر كذلك دوراً خطيرا في رسم سياسة العالم ، فكل من الدولتين العظمتين ، صاحبتي القوة العسكريـــة في العالم (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) تحاول أن يكـــون لها النفوذ والسيطرة عليه دون غيرها .

وما قامت به الولايات المـتحدة الأمريكية في ابريل ١٩٨٦م ضـد الجماهيريةالليبية الشعبية لخير دليل علي أن تكون لأساطيلها البحريـة الهيمنة والسيطرة علي هذا البحر ودوله ، فانطلقت القاذفات المقاتلـة تصب جـام غضبها علي الجماهيرية بدون رحمة أو هوادة لأنها أظهـــرت موقفـا عدائيا من وجـود الأسطول الأمريكي وحاملات الطائرات فـــي هـذا البحـر ، الذي يهدد وجودها أمن وسلامة الدول المطلة عليه .

لقد كان موقف الولايات المـتحدة من ليبيا هـو الذي دفعني للبحث في بطون الكتب عن الأحداث المشابهة في التاريخ الاسلامي ، فظهـر أن إقريطش (كريت) الإسلامية كانت تمثل مركزاً أساسيـــــا للتصدي لأعتي القوي التي عاصرتها وهي الأمبراطورية البيزنطية، ففـي

تاريخ هذه الجزيرة مع الاسلام دليل واضح علي أن اتحاد المسلمين اليوم هو الحامي لكيانهم ، الحافظ لبقائهم ، المؤدي إلي تبوئهم المكانة اللائقة بهم في عصر الكيانات السياسية الكبيرة والقوية في نفس الوقت . هذا العصر الذي تختلف فيه التيارات ، وتتضارب الاتجاهات ، وتتجاذب القوي السياسية والفكرية وجود المسلمين، وكيانهم كله .

فمع رايات الإسلام الخفاقة علي اقريطش لنقف علي دورها الواضح في سبيل الإسلام ، وجمع كلمة المسلمين في بعض حقب التاريخ مما مهد الطريق لسيطرة المسلمين علي هذا البحر وجعله جديرا بأن يسمي بحر العرب لا بحر الروم .

الموقع والمساحة :

تقع جزيرة كريت (إقريطش) في قلب البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) الشرقي بين خطي عرض ٥٠ر٣٤° ، ٤٠ر٣٥° شمالا،وخطي ٣٠ر٢٣°، ٦٠ر ٢٦° من خطوط الطول شرقا ، فهي بذلك تتوسط القارات الثلاث آسيا وأوروبا وافريقيا ، وتكاد تتساوي في البعد عنها ، كما تعد مرقبا لما يجاورها من ممالك هذا البحر . كما كانت بحكم موقعها ، مركز التقاء الحضارات المختلفة لشعوب القارات الثلاث وكان موقعها عند الحد الجنوبي للبحر الإيجي قد جعلها تقسمه إلي قسمين وتتحكم فيهما ، مما هيأ لها فرص السيطرة علي عديد من الجزر اليونانية في هذا البحر والشواطئ المطلة عليه .

وتبعد هذه الجزيرة عن رأس ماليا في بلاد اليونان ستين ميلا وعن رأس كريو في الطرف الغربي من برّ الأناضول مسافة عشرة ومائة ميل ، وعن جزيرة رودس مائة ميل ، وعن قبرص حوالي ثلاثمائة ميل.

ويبلغ طولها من الشرق إلي الغرب ستين وماثة ميل ، ويختلف عرضها بين ستة وخمسة وثلاثين ميلاً ، فتبلغ مساحتها علي ذلك حوالي تسعة وتسعين ومائة وثلاثة آلاف ميل مربع . أما محيطها فيبلغ ثلاثمائة وخمسين ميلاً . (١)

وتعتبر هذه الجزيرة إحدي أربعة جزر كبري في هذا البحر وهي (قبرص ، وصقلية ، وسردينيا) مع تمتعها من بين الجزر الأربعة بمركز استراتيجي هام اكسبها مكانة ممتازة بين سائر الجزر اليونانية . ويقابلها في افريقيا ليبيا التي تعتبر أقرب نقطة اليها.

الاسم :

عرفت الجزيرة في العصور المختلفة باسماء عديدة ، فعرفت في العصور القديمة باسم (ماكارونيسوس) و (يريا) نظراً للطف هوائها ، واعتدال مناخها ، كما عرفت كذلك باسم (دوليخة) بسبب تكوينها المستطيل الشكل ، وسميت باسم (تلخينيا) نسبة إلي الشعب المعروف باسم (تلخينيس) وهو أحد الشعوب التي استوطنت الجزيرة ، في الأزمنة القديمة ، وأطلق عليها كذلك اسم (ايدايا) نسبة إلي جبل أيدا أضخم جبال الجزيرة . وسماها العرب إقريطش (٢)

(١) أبو الفدا . تقديم البلدان . ص ١٩٤ ـ ١٩٥ مكتبة المثني ببغداد .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ق ١ ص ٢٠٣ ورحلة ابن جبير ص ٦
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٦ .

وأقريطية [١] وإقريطش البترليش ، ومعناها المائة مدينة علي حد تعبيرالقلقشندي [٢] ، وسماها الأتراك كريد ، واليونانيون يسمونها كريتي . أما أهل البندقية فيسمونها كاتدية [٣] ، ويسميها المؤرخون البيزنطيون كريتا [٤] . وسنتقتصر علي استعمال الإسم العربي (إقريطش) أو (كريت) الاسم المعاصر لها .

تربة الجزيرة واقتصادياتها :

تعتبر تربة إقريطش خصبة ، وخاصة سفوح الوديان والسهول الساحلية ، حيث ان طبيعة الجزيرة صخرية معقدة ، تتخللها بعض الجبال مثل إيدا ، ماداراس ، لاسيتي ، أما السهول فهي سهول ساحلية حول أطراف الجزيرة ، وسهول فيضية داخلية حول مجاري الانهار العديدة التي أهمها بلاطاموس ، ميلوبوكاموه ، أنابوثياري، ومتربولي بوتاس ، واليكترا ، وليثاكوس ، وماساتيا ، وغيرها .

ولوجود هذه الأنهار جاءت الزراعة بأرض الجزيرة ، وأهم المحاصيل الفاكهة والخضروات والحبوب ، كالشعير والحنطة والذرة، وقصب السكر والبن والنيلة ، بجانب التوت الذي ينتشر بكثرة في كافة انحاء الجزيرة ، والذي اعتمدت عليه في تربية دود القز وصناعة المنسوجات الحريرية ، وتغطي غابات الزيتون سهول الجزيرة

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٨٥

(٢) صبح الأعشي جـ ٥ ص ٣٧١

(٣) تاريخ كريت . بحث في مجلة الهلال ص ٦٠٩ (السنة الخامسة ابريل ١٨٩٧م) .

(٤) اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ٣٢ ط. دار المعارف ١٩٨٣م .

حيث يعتبر أوفي محاصيلها وأجودها قيمة ، وتختلف ثماره حجما ولونا ، ومنه تعصر كميات وفيرة من الزيت يصدر الفائض منها ، ويكثر كذلك البرتقال والجوز والقسطل والكروم والخروب ، بجانب الكمثري والبرقوق والتين والخوخ والبلح والموز والبشملة والسفرجل.

وبجانب الزراعة يشتغل السكان بتربية الحيوانات ، وأهمها الأغنام والماعز والخنازير والأرانب ، والخيول والبغال والحمير ،ويوجد بعض المعادن كالذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد وغيرها. (١)

إقريطش قبل الإسلام :

يرجع تاريخ الجزيرة إلي الأزمنة البعيدة ، بل أن تاريخها القديم مليء بالأساطير ومع ذلك فقد حمل الفينيقيون والمصريون (الفراعنة) تجارتهم وصنائعهم اليها ، فتحضرت وازدهرت ، في الوقت الذي كان اليونانيون لا يزالون في أعماق الهمجية . (٢)

وقد أثبتت الحفريات وجود تمثال صنع في مصر حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م مما يعتبر دليلا ماديا واضحا علي علاقات كريت بمصر في ذلك الزمن الموغل في القدم (٣) .

ويقال إن أميرين من أمراء الجزيرة اشتركا في حرب طرواده وهما ايدومينوس وميروت ، كما كانت مهداً للحضارة الهللينية ، وعندما قوي أمر الرومان ، واخضعوا سوريا والأناضول ، استطاعت

(١) حسين كامي الخانيوي : تاريخ كريد جـ ١ ص ٦٨ـ ٧١ بتصرف .
(٢) تاريخ كريت : بحث بمجلة الهلال ص ٩١٥ .
(٣) آثار كريت : بحث في المقتطف من ٢٠٨ من الجزء الثالث ، مجلد ٢٦ مارس ١٩٠١م.

الجزيرة مقاومتهم ، واستمرت الحروب بينهما قرابة ثلاثة أعوام رضخت بعدها إقريطش للنفوذ الروماني سنة ٦٧ ق.م[١] وكان ذلك آخر عهد الجزيرة بالاستقلال .

وخلال عصر الامبراطورية الرومانية القديمة ضمت إقريطش (كريت) لولاية مكدونيا حتي فتحوا مصر ، فاتبعها الرومان لاقليم سيرن (برقة) فكونتا مقاطعة واحدة ، حكمت حكما ذاتيا عن طريق مجلس شيوخ ، ووجد بها نائبا عن بابا روما وموظفا واثنين لجمع الخراج[٢]

وفي زمن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧ م) ضمت الجزيرة الي مقاطعة الليريا (أو ايليريا) ، وحكمت عن طريق قنصل موفد من قبل الامبراطور البيزنطي وتحالفت مدنها تحت السيادة البيزنطية . وبعد موت قسطنطين انقسمت المملكة الي أقسام ، تبعت اقريطش لمملكة المغرب الرومانية ، ثم ما لبثت أن عادت لمملكة المشرق في القسطنطينية ، وظلت كذلك حتي فتحها المسلمون سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م .

الأسطول الاسلامي ونشاطه في الدولة الأموية :

لقد كان ظهور الاسلام أثر كبير في تغيير مجري تاريخ حوض البحر المتوسط ، فبوقوع الاسكندرية - عاصمة مصر في العهد الروماني

(١) د/ زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٦ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٤م .
(٢) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ص ٤٣

تحت نفوذ الاسلام سنة ٢١ هـ / ٦٤١م [١] تبدل الحال غير الحال، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل تاريخنا الطويل ذلك لأن انتشار الأسلام في الاقطار الواقعة علي سواحله ، والتي كانت خاضعة لدولة الـــــروم أدي الي محاولة المسلمين لتأمين وجودهم في هذه المناطق ، وذلـــــك بالقضاء علي جيوب مقاومة الروم في هذه السواحل ؛ والتي يتخذونهـا قلاع يعتصمون بها ، وينقلون اليها المؤن وأدوات القتال بواسطـة الاسطول البيزنطي الذي كان منفرداً بالسيادة علي البحر المتوســـط آنذاك .

وقد رأي معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام انذاك ، أنه لـن يسهل القضاء علي تلك الجيوب البيزنطية إلا بقطع طريق الاتصـــال البحري بينها وبين الروم ، ولن يتمكن المسلمون من ذلك إلا بواسطة إسطول إسلامي يحققون به ما يريدون .

ومن المرجح أن معاوية لم يدرك عواقب الخطـر البيزنطي البحري إلا في سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥م وذلك عندما رأي البيزنطيين قد بعثوا الي مصر اسطولاً ضخما باغت من كان بالاسكندرية من المسلمين وفتـــك بحاميتها [٢] ، وكانت خطة الروم تنطوي علي الهجوم من الاسكندريـة حيث تنضم اليها قوات الروم الموجودة في افريقية . ثم يتجهون شرقـا لمقابلة الجيش الثاني الذي ينقض علي المسلمون من آسيا الصغـــري بعد أن يتم لهم الاستيلاء علي مصر . [٣]

(١) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج٩ ورقة ٢٧ـ٣١ مخطوط .
(٢) العيني : عقد الجمان جـ ٩ ورقة ٣١ .
(٣) د/ محمود زيادة : عصر الفتوحات الاسلامية ص ٤٩ .

ومن جانب آخر كان طول السواحل الإسلامية التي امتدت الي مسافات طويلة في سوريا ومصر وشمال افريقيه يستلزم اسطولاً قويا يحمي هذه السواحل من غارات القراصنة البيزنطيين وغيرهم .

لهذا كله رأي معاوية أنه لابد للمسلمين من اسطول قوي ، يقيهم شرّ هجمات الروم وغيرهم ، وقد تم لهم ذلك بعد محاولات مضنية(١) وبدأت بذلك مسيرة الأسطول الإسلامي الظافرة ، في العصر الأموي فقد كان في عكا مصانع واحواض للسفن ، استولي عليها المسلمون وأولوها عناية كبيرة ، حيث انشأوا بها سفنا كبيرة ، من اشجار غابات الأرز ومستعينا بصناع الاقطار المفتوحة التي مرنت منذ القدم علي الملاحة البحرية ، سواء في عكا أو في غيرها من المدن واطلق علي اماكن صناعة السفن اسم دار الصناعة التي انتجت اسطولاً استطاع ان يقض مضاجع الروم الذين كانوا يتحينون الفرصة للعودة إلي أماكنهم القديمة ، باستخدام الغارات البحرية ، ولكن معاوية بدهائه استطاع أن يحقق هدف المسلمون ، فقد ساق اسطوله في البحر لغزو جزيرة قبرص (٢) ورودس . وقد نجحت الحملة في النزول إلي قبرص حيث صالحوا أهلها علي دفع جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار (٣) كما أغارت حملة بحرية أخري من سورية علي قبرص سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢م ، وعادت منها بغنائم عظيمة ، مما يدل علي أن أهل قبرص قد أخلوا بالاتفاق الذي تم بينهم وبين المسلمين وان الإسطول الإسلامي قادر علي التعامل مع اعدائه بقوة .

(١) راجع الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ صـ ٥٠ ـ ٥٣
(٢) كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨م . البلاذري : فتوح البلدان صـ ٢٥٩ ـ ١٦٠ ود/ ابراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون صـ ٨٨ ـ ٩١ . (٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص ٤٨

وفي نفس العام اغارت حملة أخري علي جزيرة رودس وكـــان نصيبها النصـر . وبعد ذلك بعام حمل العرب علي جزيرة قبرص مرة أخري واحتلوهـا احتلالاً كاملاً(١)

ونتيجـة هـــذا النشاط للأسطول الاسلامي ، كان ردّ الفعل للإسطول البيزنطي الذي حاول أن يلقي بكل ثقله في معركـة يقضي بها علـــي القوة المجيدة التي تحاول انتزاع سيطرته علـي مياه البحر المتوسط . ولذلك التقي الاسطولان في البحـر علي مقربة من جنوب آسيا الصغري وعند خليج فينكس ، وقـد اسفرت تلك المعركـة التي تعرف بـذات الصواري(٢) ؛ عن انتصـار بحري كبير أحرزه المسلمون ضـــــد البيزنطيين ، حتي اعتبرها المؤرخ الإغريقي تيوفانس (يرموكا)ثانية علي الروم . فلقد تحطم الأسطول البيزنطي ، وهرب قائده الامبراطور قنسطانزين هرقل الي جزيرة صقلية ليتخذها مقراً لـه بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط كلاً من ايطاليا وشمال افريقيه البيزنطـي، ويدفع منه الزحف الإسلامي علي ما تبقي لدولته من أراضي ، ولكـــن الأمبراطور لقي مصرعـه حين وصل مدينة سيراكوزا بصقلية ، إذ أتـت عوامل البغضاء التي بدأت في ايطاليا ثمارهـا حين دخل هذه المدينـة فقتله شخص من خدمه يدعي (اندرياس) Andreas وهـــو بالحمام ، ثم نودي بشخص يدعي ميزيزيوس Mizizios امبراطورا.

ولكن هذه المؤامرة لم تدم طويلا إذ جاء قسطنطين بن قنسطانـــز إلي صقلية سريعاً ، وقبض علي القاتل والامبراطور المزعوم واعدمهما(٣)

(١) د/ العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ٩٢
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٠ ، تاريخ الطبري ج٥ص ٦٩ـ ٧٠ (٣) د/ العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ٧٩ .

وانشغل بتقوية الجبهة الغربية من دولته لصد أي زحف اسلامي قد يبدأ من مصر · ولكنه انشغل باخماد ثورة جند الاناضول ، وترك للأسطول الإسلامي حرية الحركة في البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) الذي كان حرياً بأن يطلق عليه اسم (بحر المسلمين) لا بحر الروم.

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية العديدة بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول الي بلاد المسلمين ، وعمل علي تحقيق ذلك بالاستيلاء علي جزيرة (إقريطش) ـ كريت ـ إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما علي بحر إيجه الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة إقريطش عبرها بامتداد مائة وستين ميلاً ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلي مدخلين تتحكم في كل منهما ·

ففي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٣م أرسل معاوية جنادة بن أمية الأزدي الذي استولي علي رودس في نفس السنة ليفتح هذه الجزيرة الهامة، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لمهاجمة بلاد الشام ؛ إلا أن جنادة الأزدي لم يستطع الاستيلاء عليها لضخامتها ، واكتفي بالاغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها (١)

وبذلك سلطت القوة البحرية الاسلامية تسليطا عنيفاً علي منطقة بحر ايجة في محاولة للسيطرة عليها ·

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٤، ، قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٥١ ، العراق ١٩٨١م ·

وهكذا استطاع معاوية بما بذله من جهد بحري من تقليم أظافر البيزنطيين - أصحاب السيطرة علي اقريطش - وجعلهم يدركون ما عليه بحرية المسلمين الناشئة من فتوة وقوة - وتتخلي الدولة البيزنطية عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التي استولوا عليها في شرق هذا البحر .

ولكن يبدو أن الاهتمام بالحروب البرية في عهد معاوية - مع البحرية وفي عهد خلفائه من بعده أدت الي تقلص نفوذ الاسطول البحري شيئا فشيئا حتي أفل نجمها في اخريات هذه الدولة وبخاصة ابتداء من سنة ١٢٨هـ / ٧٤٧م أثناي حكم مروان بن محمد الذي شغلته الثورات الداخلية في الشام والعراق وخراسان وفارس والحجاز واليمن الي محاولة القضاء عليها ، فأهمل شأن الاسطول جانبا بما كان له أثره العكسي ،فأدار الزمن ظهره له ، وتنكر الحظ للمسلمين في البحر ، فزاد نفوذ البيزنطيين حيث جرت معركة حاسمة بين الطرفين علي مقربة من قبرص ، وقد أحاط فيها أسطول (إقريطش) البيزنطي بالاسطول الإسلامي الواهن فقضي عليه ، وكان الأسطول ضخما قوامه الف سفينة ، فهزمه هزيمة منكرة بحيث لم تنج من سفنه العديدة غير ثلاث لاذت بالفرار . (١)

وهكذا لم يستطع المسلمون في عهد الدولة الأموية أن يستولوا علي جزيرة إقريطش وإن شنوا عليها غارات عادت بكثير من الغنائم كما حدث في عهد الوليد بن عبد الملك (٢) وإن كان للأسطول نشاط في

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٨ أرشيبالدلويس القوي البحرية والتجارية ص ١٠٨ - الخراج لقدامه بن جعفر ص ٢٥١
(٢) د. ابراهيم خرخان : المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ص ٨٤

مناطق عديدة غيرها .

موقف إقريطش من فتح شمال افريقية :

وإذا كانت مصر بعد فتحها ؛ تعتبر مركزاً لإمداد القوات الإسلامية المتوجهة لفتح شمال افريقية ، فقد وقف الاسطول البيزنطي المتمركز في جزيرة إقريطش (كريت) وغيرها من جزر البحر الأبيض الخاضعة للقسطنطينية حجر عثرة في سبيل تقدم المسلمين في الساحل الأفريقي . فقد ساعد هذا الاسطول كسيلة البربري علي التمرد والعصيان ، وإلحاق الهزيمة بالقوات الاسلامية التي كانت تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٥ هـ /

وفي سنة ٦٩ هـ / ٦٨٣م جهز عبد الملك بن مروان حملة كبيرة إلي شمال افريقية بقيادة زهير بن قيس البلوي لاستردادها، فزحف علي القيروان واستعادها وقتل كسيلة في المعركة ، واستمر في تقدمه غربا ، فلما علم البيزنطيون بتقدم زهير ارسلوا اسطولا كبيرا من كريت وصقلية ، فنزل برقه ، وقطع خط الرجعة علي زهير الذي قاتل ببسالة وشجاعة منقطعة النظير مع جيشه حتي استشهد في سبيل الله .

ولم تؤثر هذه الهزيمة علي المسلمين ، فما أن قضي الخليفة عبد الملك بن مروان من منافسة العنيد عبد الله بن الزبير حتي جهز جيشا كبيرا قوامه ٤٠٫٠٠٠ رجل تحت قيادة حسان بن النعمان الذي اهتم بالمعاقل الساحلية البيزنطية ، وتمكن بمساعدة بعض الوحدات البحرية الاسلامية من القضاء علي تلك المعاقل الواحد تلو

الآخر . فسقطت قرطاجنة بعد معارك عنيفة ولذلك نراه يدمر اسوارها وحصونها حتي لا تتخذ حصنا بعد ذلك ، وسقطت كذلك بنزرت وسطفورة ، وهكذا نجح حسان في تحطيم معاقل الروم علي ساحل افريقية ، وكان لانتصاراته علي الروم دوي شديد ، ورفع من هيبة اقوة الدولة الاسلامية ، حتي اصبح الروم منها في خوف ،وشعروا بقرب نهايتهم .

ولكن البيزنطيين والبربر عادوا الي الحرب إذ ثار البربر بزعامة امرأة يهودية يقال لها الكاهنة من قبيلة جراوة واستطاع الاسطول البيزنطي بزعامة يوحنا بطريق صقلية استعادة قرطاجنة [١] غير أن هذه المحاولات البيزنطية ذهبت ادراج الرياح ، إذ عادالمسلمون بعد أن وصل المدد الي القائد حسان من استئناف العمل ضد القوات المناوئة ، حتي عجزت الكاهنة وقواتها عن التصدي للمسلمين ، وماتت الكاهنة سنة ٨١ هـ / ٧٠٠م في إحدي المعارك في مكان يسمي (بئر الكاهنة) [٢]

وقد استطاع الاسطول الاسلامي والقوات البرية الاسلامية في إجبارالسفن البيزنطية التي ساعدت التمرد الي الإنسحاب شرقا للحصول علي امدادات جديدة فرسا في جزيرة كريت . إلا أن الحوادث سرعان ما تحركت لتغير من هدف هذه الحملة ، ولتؤكد ضياع قرطاجنة ليمنعوا تكرار التهديد البحري البيزنطي لها، وعندما رسا الاسطول البيزنطي المنسحب في كريت ، اصاب القلق البيزنطيين

(١) ارشيبالدلويسي : القوي البحرية والتجارية ص ٩٩
(٢) د. عبدالفتاح شحاته : دراسات في تاريخ الأمويين جـ٢ ص ١٢٠

بسبب فشلهم في الاحتفاظ بأفريقية وخشوا العودة الي الإمبراطـــور وهم يجرون وراءهم اذيال الفشل فيعاقبهم (١) .

وبسرعة انفجر تمرد عام بين الجند ، قتلوا خلاله قائدهم، وعلقـوا أملهم في شخص أبسيمار القائد البحري الكبير ؛ الذي ابحر رأســا الي القسطنطينية ، فقاومهم الإمبراطور ليونتيسوس لفترة إلاأن حراس الأبواب تمت رشوتهم فسهلوالهم فتح الأبواب ، فاستباحها وجنوده ، ثم تم اعلان ابسيمار امبراطورا في القسطنطينية .

إقريطش في أوائل العصر العباسي :

لم تخضع إقريطش للنفوذ الإسلامي الكامل في عصر الدولة الأموية وإن اكتفي المسلمون بالهجوم عليها ، والعودة بالغنائم كما سبـــق أن ذكرنا ، ويرجع السبب في ذلك إلي استخدام قسطنطين لصقليـة كمركز لدولته أبعد الأساطيل الإسلامية عن هذه الجزيرة التي ظلـت بمنأي عن الأساطيل الإسلامية النشطة .

وفي العصر العباسي نقل العباسيون عاصمتهم الي الداخل فـــي العراق ، فأدي ذلك إلي إهمال الأسطول الاسلامي في البحر الأبيـض المتوسط ، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية وازاء ذلـك رسم العباسيون سياسة أخري تجاه الروم والجزر البحرية، فكـان نشاطهم الحربي عبارة عن غارات لإظهار القوة وتخويف العدو فقـط

(١) وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتي منتصف القرن الثامن الميلادي ص ٥٨ - ط الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ١٩٨١م

(٢) المرجع السابق .

أو الهجوم علي مناطق التخوم فيما يعرف بالصوائف والشواتي التي أخذت شكل حملات منظمة نوعا في عصر القوة لهذه الدولة وخاصة في عهد الرشيد والمعتصم . وإن كانت الأحوال العامة في العالم المعاصر هي السبب ؛ ففي الأندلسي دولة أموية قوية تناصب العباسيين العداء الشديد، وفي فرنسا دولة تحاول ان تحل محل الدولة الرومانية الشرقية ذات القوة والهيبة والاتساع والنفوذ ، وهناك الدولة البيزنطية أو دولة الروم في القسطنطينية تحاول إعادة الماضي إليها ، كان هذا هو الذي جعل العباسيين لا يهتمون كثيرا بالجزر للعلاقة الطيبة مع دولة الفرنج ، فعداء يقابلة صداقة لمنافع كل طرف من الأطراف .

ولذلك اختفت الأساطيل الاسلامية في الدولة الإسلامية في الشرق ففي مصر اختفي اسطولها طوال قرن من الزمان تقريبا ولم تستعد سلطانها فعلاً إلا أيام الفاطميين . وفي الشام علي مدي ربع قرن وإن بدأت الأيام بعد ذلك تتحدث بذكر الأسطول العربي السوري وتشير الي نشاطه في أواخر القرن التاسع الميلادي علي يد ليو الطرابلسي في أواخر القرن التاسع الميلادي [1] أما الاسطول الاسلامي في شمال افريقية فقد أصابه الخمود أيضا ، وقلمت أظافره هي الأخري وظل كذلك مدة نصف قرن .

أما بيزنطة فقد احتفظت بسيادتها البحرية في بحر الروم لمدة نصف قرن ابتداء من سنة ١٣٣هـ / ٧٥٢م فقد بسطت نفوذها خلال ذلك علي جزر قبرص وصقلية وكريت وسردينية ، كما استطاعت ان

أرشيبالدلويسي : القوي البحرية ص ١٠٨

تتحكم في المضايق ذات القيمة البحرية والهامة الواقعة علي طريق التجارة البري بين الشرق والغرب (١)

ولكن رغم ذلك كانت هناك محاولات إسلامية لفتح جزيرة اقريطش (كريت) ، وربما كان ذلك محاولة لاستعادة النفوذ ، فقد أرسل هارون الرشيد حملة بحرية يقودها حميد ابن معيوف الهمداني ففتح بعضها (٢)

ويذكر البلاذري ان البيزنطيين استعادوا هذه الأجزاء من جديد وإن لم يحدد التاريخ ، وإن كان المرجح أن ذلك لم يتم اثناء حياة الخليفة هارون الرشيد الذي بلغت الدولة الاسلامية في عهده عنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تلتزم سياسة الهجوم دفاعاً عن كيانها ونشراً لدعوتها ، وتأمينا لحدودها ، وقد أحرزت الكثير من الانتصارات علي الدولة البيزنطية التي اتخذت جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذي انتابها ، والغالب ان البيزنطيين قد استعادوها إبان الخلاف بين الأمين والمأمون .

ثم كانت المحاولة الكبري لفتح الجزيرة في خلافة المأمون علي يد أبي حفص عمر بن عيسي الأندلسي المعروف بالأقريطس (٣) وقد تم لهم فتحها وهذا ما سنراه واضحا في الصفحات التالية بعد أن نلقي الضوء علي الأحداث التي أدت الي ذلك .

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ١٨
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٩ ، قدامه بن جعفر : الخراج صـ ٢٥١ .
(٣) قدامه بن جعفر : الخراج صـ ٢٥١ .

ثورة الربض [1]

لما كان من المتعارف عليه أن الذين حملوا راية الإسلام الـــي إقريطش (كريت) هم فلول الربض الذين طردهم الحكم بن هشـــام الأموي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ م)- ٨٢١م) بعد ثورتهم عليه، والتـــي تعرف بثورة الربض ، لزم القاء الضوء عليها .

يستفاد من المصادر التاريخية أن سبب هذه الثورة ما حاوله الحكم بن هشام من الانتقاص من المكانة السامية التي حصل عليها الفقهـــاء والعلماء أيام حكم أبيه ، بجانب فرض الضرائب ، واستخدام العنف فسخط العلماء ، وطعنوا في سلوكه وحرضوا الناس عليه ، واتفقوا مـــع أحد أفراد الأسرة الحاكمة للخروج علي الحكم ، لكنه خذلهم، وأوشـــي بأمرهم للخليفة ، فأمر بالتخلص منهم ، فقبض عليهم ، وصلب اثنيـــن وسبعين رجلاً من زعمائهم ، مما كان له أثر عكسي علي الخليفة، فقـــد امتلأ جو قرطبة حقدا عليه .

وأنطوت النفوس علي الثورة ضده ، ولم يسبق سوي اشعال الفتيـل الذي تمثل في قتل أحد مماليك الأمراء غلاماً ، فغلت مراجـــــل الغضب ، وانفجرت براكين الحقد الدفين، وكأنهم كانوا يترقبـــون هـذا الحادث بفارغ الصبر ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا علي المملوك القاتل فقتلوه ، ثم خرجوا منادين بخلع الحكم .

---

(١) سبق تناول هذا الموضوع بالتفصيل في بحث بعنوان (الربضيـــون

وكان أول من شهر السلاح في وجهه أهل الربض بعدوة النهر، ثم انضم اليهم أهل المدينة والأرباض الأخري ، فخاف الحكم من مغبة الثورة ، وتحصن في قصره ، وأوكل حراسته الي كتائب من العبيد والجند .

واشتدت الثورة ، وكاد الثوار يتغلبون علي جنود الحكم، لولا أنه التجأ الي الحيلة والخديعة ، حيث أرسل جماعة أحرقت دور الثوار[1] الذين ما أن علموا بذلك حتي عادوا أدراجهم إلي البيوت حيث النساء والأولاد ، فأخذتهم سيوف جنود الحكم ، فقد تلقاهم حرس القصر من خلفهم وجنوده من أمامهم ، وقد اتخنوا فيهم قتلا وتجريحا، حتي أنه خلال ثلاثة أيام من القتال تجاوز عدد القتلي العشرة آلاف رجل وفرّ أضعافهم من قرطبة ، ولكنه لم يكتف بذلك بل أمر بصلب ثلاثمائة من المقبوض عليهم[2] زيادة في النكاية بهم ، وأمر بهدم الربض القبلي فأعيد بطحاء مزروعة .

ولما انقضت ثلاثة أيام من القتل والتشريد وسفك الدماء ، أمر الحكم برفع السيف عنهم وتأمين فلولهم علي أن يخرجوا من قرطبة فخرج بعضهم الي الساحل الشمالي لبلاد المغرب حيث نزلوا مدينة فارس ، وبنوا لهم محلة فيها عرفت باسم (محلة الأندلسيين) أما جمهورهم الكبير فقد ركبوا السفن واتجهوا شرقا فوصلوا الي الإسكندرية ، ومكنت لهم الظروف التي كانت تمر بالبلاد من السيطرة علي تقاليد الأمور بها لعدة سنوات[3] حتي استطاع عبد الله بن

(١) د. القرموط : الربضيون بالاسكندرية بحث بمجلة كلية البنات بأسيوط العدد الأول ص ١٣٦ ومابعدها .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ص ١١٣، الكامل لابن الأثير ج٦ ص ٢٩٩ .

(٣) راجع خطط المقريزي جـ١ ص ٣٢٢ ، النجوم الزاهرة لابن تغري ج٢ ص١٦٦ ، الولاة والقضاة للكندي ص١٦٥ ، مصر في فجر الاسلام للدكتورة سيدة الكاشف ص ١٥١ - ١٥٢

طاهر والي الخليفة المأمون علي مصر أن يخلص الاسكندرية من قبضتهم ، وان يطلب منهم الخروج من المدينة الي حيث يشاءون علي شروط أهمها :

١ - ألا ينزلوا في بلد خاضع للخلافة العباسية .

٢ - ألا يستصحبوا معهم أحداً من المصريين في مراكبهم .

٣ - ألا يأخذوا عبيدهم معهم .

فإن فعلوا ذلك حلت له دمائهم ، ونكث عهدهم ، فرضوا بشروطه ورغم اخلالهم لبعض هذه الشروط إلا ان ابن طاهر عفا عنهم ، وتركهم يغادرون الاسكندرية - فرحلوا عنها في النصف الثاني من ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / النصف الثاني من يونيو ٨٢٧م (١)

إلي إقريطش :

لم يكن اخراج الربضيين من الاسكندرية نهاية المطاف في رحلتهم الشاقة وانما كانت بداية لمرحلة أخري جديدة أكثر إشراقا وأشد تأثيرا ، وذلك انهم ركبوا البحر في مراكبهم أو مراكب هيأها لهم عبد الله بن طاهر (٤٠ مركبا) وقطعوا غباب البحر إلي إقريطش التابعة للدولة البيزنطية ، ونزلوا بها .

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن وليد الصدفة، فقد كانوا علي معرفة مسبقة بتلك الجزيرة وغيرها من الجزر اليونانية الأخري التي طالما تعرضت لغاراتهم ، وكانت آخر غارة قاموا بها علي إقريطش

(١) انظر تاريخ الطبري جـ١٠ صـ ٢٧٥-٢٧٦ ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ نفح الطيب للمقري جـ ١ ص ٣١٨،النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦م حين ارسلوا من الاسكندرية عدة سفن حوالي عشر سفن أو عشرين سفينة أغارت عليها وعادت محملة بكثير من الغنائم والأسري بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة (١) كما أن هذه الجزيرة اقرب الجزر الي الاسكندرية ، ومن ناحية ثالثة معرفتهم بضعف شوكة الدولة البيزنطية عليها ، بجانب الاضطراب الذي اصاب الجزيرة وعدم توقعهم مثل هذا الهجوم ، خاصة وان أحوال مصر كانت مضطربة بسبب الخلاف الناشب بين الأمين والمأمون ، وبين الأمراء فيها ، فلم يدر بخلد أي واحد من أهل الجزيرة انها ستقع تحت قبضة حملة اسلامية في هذه الظروف بالذات إلا ان ذلك وقع .

وأول ما يصادف الباحث هنا هو مشكلة تحديد تاريخ الفتح الاسلامي للجزيرة ، بصورة دقيقة ، فالمصادر اليونانية علي حد قول فازليف (تحاول الربط بين هذه الفكرة ـ الفتح ـ وفكرة ثورة توماس الصقلي الذي ثار علي الامبراطور البيزنطي (٨٢٠ـ ٨٢٣ / ٢٠٥ـ ٢٠٨ هـ) حيث تجمعت له كل القوات البحرية عند القسطنطينية (٢) .

ولكن مما يفند هذا الرأي أن ثورة توماس الصقلي كانت قد أخمدت قبل احتلال كريت عام ٨٢٧م/ ٢١٢ هـ بأربع سنوات كما انهم كما سبق ذكره قد اغاروا علي الجزيرة عدة مرات مما يتبين ان المسلمين كانوا علي معرفة تامة باقريطش ، ولعلهم عرفوا خصب تربتها وكثرة مواردها الطبيعية ، مما أرضاهم عنها وأطمعهم فيها حتي

(١) د٠العدوي: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧، اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٦٤ ، فازليف : العرب والروم ص ٥٥

(٢) العرب والروم ص ٥٥ .

سنحت لهم الفرصة .

فوصول المسلمين الي جزيرة إقريطش بدأ في شهر ربيع الأول ٢١٢ هـ / يونيو سنة ٨٢٧ م علي ما حددته المصادر العربية [١] حيث أن هذه المصادر قد تتبعت أخبار الربضيين خلال الفترة التي قضوها بالاسكندرية ، حتي خروجهم منها ، كما أن بعضهم كالطبري كان معاصراً لهذه الأحداث ، فتاريخه لهذه الأحداث أقرب الي التحقيق .

وصل المسلمون البالغ عددهم نحو خمسة عشر ألفا [٢] غير النساء والأطفال جزيرة إقريطش تحت قيادة رجل مشهور يعرف بأبي حفص عمر بن عيسي البلوطي ، ويعرف بالغليظ أو ابن الغليظ من أهالي قرية بطروج من عمل حصن البلوط المجاورة لمدينة قرطبة . [٣]

وتسميه المصادر البيزنطية أبو خبص Apochaps ، حيث نزلوا علي الشاطئ الشمالي للجزيرة عند موضع خراكس وتذكر هذه المصادر كذلك أنه ما كاد الفاتحون المسلمون يبتعدون قليلا عن الشاطئ حتي أمر أبو حفص باحراق السفن التي نقلتهم إلي كريت وقد غضب الأندلسيون لذلك أشد الغضب ، ملكهم الخوف علي نسائهم وأطفالهم فهدأهم أبو حفص واقتدح غني الجزيرة وجمال الكريتيات وصلاحيتهن للزواج [٤] .

---

(١) تاريخ الطبري جـ١٠ ص ٢٧٥-٢٧٦ ، الكامل في التاريخ ج٦ص٣٩٨ النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٩٢ ، العبر لابن خلدون جـ٣ ص ٢٥٣

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ١٥٧ - ١٥٨ ، د. حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١٣٧ .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ص ٣٩٤.

(٤) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٦٦ - ٦٧

وزاد الدكتور حسين مؤنس قوله : وسوف تؤدي لكم نساء كريت الجميلات وظائف الزوجات ، وبذلك تصبحون آباء جيل جديد (١)

وزاد بعضهم ان أبا حفص عندما وطئت قدماه أرض الجزيرة ، صاح في جنده :(هاهي الأرض الطيبة التي وصفها النبي بالبلد الذي يتدفق فيه اللبن والعسل) .

ولو صح أمر تحطيم السفن - وليس من المستبعد حدوثه فقد سبق به طارق بن زياد- فيحتمل أن عمرقد فعل ذلك تيمناً بطارق الذي كتب له النصر في فتوحه . كما يوضح حرص القائد علي اجبار اتباعه علي الاستقرار في الجزيرة والاستماتة في فتحها والدفاع عنها.

اما ما ذكر من قول النبي السابق فلم يصدر عنه مثل هذه الأقوال وإنما هو نوع من حماسة البابوية للحروب الصليبية التي ذكرت مثل هذا القول .

كما أن قوله : (امدكم بوطن تجدون فيه زوجات) لا يمكن أن يصدق ، ذلك أنه لم يكن هدفهم مجرد اشباع نوازع النفس ،وإنما الدعوة الي الله في المقام الأول .

ورغم عدم استحالة احراق السفن كما زعم المؤرخون البيزنطيون فإننا نقول أن السفن التي احرقها القائد المسلم إنما هي السفن غير الصالحة للاستعمال وليست جميع السفن لأن غالبهم علي الأقل لايستغني هذه السفن ، كما أن مهمتهم في فتح باقي الجزيرة تحتاج الي سفن

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٦٨ وانظر العرب والروم لفازيليف ص ٥٧ .

تعاضدهم وتساعدهم في الاستقرار في هذا المكان الجديد.

فتح الجزيرة

ترك إبو حفص قبل نزول الجزيرة في كل سفينة عشرين رجلاً لحمايتهم من أن يوخذوا من البحر ، ونزلوا في خراكس أو شواكس وأقاموا علي الشاطئ معسكرا لهم ، أمنوا جوانبه وحصنوه بتحصينات منيعة ، وحفروا حوله خندقا عظيما ، وعرف هذا المكان بعد ذلك باسم الخندق ، وفيه نشأت المدينة المعروفة باسم قانديا(كانديا) وهي تحريف لكلمة الخندق . (١)

وعلي عكس ما توقع المسلمون ، فلم يجدوا مقاومة تذكر لا من جانب السلطات البيزنطية بالجزيرة ، ولا من جانب الأهالي ويرجع ذلك لأمرين :-

أولهما :

بغض الأهالي للحكم البيزنطي نتيجة سوء معاملة السلطات لهم وتدخلها في شئونهم الدينية (٢)

ثانيهما :

ثورة توماس الصقلي وما أدت اليه من خراب الولايات التابعة للامبراطورية ، وتدهور تام في البحرية البيزنطية ، أوعلي حد

(١) د.الخربوطلي : الاسلام في حوض البحر المتوسط ص ٨٢، د.حسين مونس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ص ١٣٧.
(٢) راجع في ذلك : الامبراطورية البيزنطية وكريت للدكتورة : أسمت غنيم ص ٦٨ ، العرب والروم لفازيليف ص ٥٨

ارشيبالدلويس (ان بيزنطة خرجت عرجاء تماماً من هـــذه المأساة ، فقد تشتت شمل اساطيل الولايات ، وأتت عليهـــا الحرب الأهلية حين اشتدت الحاجة اليها لموازرة اسطـــول القسطنطينية (١) ولذلك كان فتح المسلمين للجزيرة اهم واخطر النتائج التي ترتبت علي هذه الثورة .

وحين اطمأن المسلمون الي عدم وجود مقاومة من جانب السكـان في الجزيرة ، شرعوا في فتح باقي اجزائها ، حيث استولوا علـــي تسع وعشرين مدينة لم تحفظ اسماؤها (٢) واخذ أبو حفص بمن معه مواصلة التقدم والفتح في الجزيرة حتي لم يبق من الروم أحد ،وأخرب حصونهم (٣) وإن ظلت أرض سفاكيا بعيدا عن سيطرة المسلمين(٣)

ويبدوا أن السيطرة علي الجزيرة بأكلمها لم يتم إلا في سنـــة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م(٤)

وهكذا استطاع المسلمون فتح الجزيرة واقامة دولة اسلامية عمرت حوالي ١٣٥ سنة ، كانت متمتعة بالاستقلال الذاتي الداخلي، علـــي الرغم من ولائهم السياسي للخليفة العباسي في بغداد ، حيث وجدوافي ذلك التماساً للأمن والأمان وتأييداً لبقائهم ووجودهم ، ولذلك اعتنقوا المذهب السني ، وان كان الحكم فيها وراثيا ، إلا انها في التقسيم

(١) القوي البحرية والتجارية ص ١٦٩ ،راجع عن هذه الثورة د٠اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٧٤-٩٢٠
(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٥٨
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٥ ، الكامل جـ ٦ص ١١٠-١١١ ، تنفح الطيب جـ١ صـ ١٥٩
(٤) شكيب ارسلان : فتوح العرب ص ١٤٣، دائرة المعرف الاسلامية م ٤ ص ١١٢ .
(٥) أسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٩٢

الاداري للدولة العباسية كانت تتبع اقليم مصر [١] وظلت كذلك في عهد الطولونيين والإخشيديين .

وقد ظل المسلمون في مركزهم الجديد باقريطش مبعثاً للرعب والفزع لمنطقة بحر ايجة ، ومصدر تهديد للعرش البيزنطي طوال فترة وجودهم بها .

وواضح من ظروف الفتح الاسلامي أن الذين قاموا به لم يكونوا قراصنة - كما يدعي أرشيبالدلويس الذي جاراه بعض العرب كصديق شيبوب ودائرة المعارف الاسلامية - ولا كانوا هواة حرب وتدمير وتخريب ، وإنما كانوا قوما شردتهم الفتن وأحلتهم عن ديارهم في الاندلس لموقفهم من أجل الدين ، فراحوا يطلبون وطنا جديدا يبغون فيه حياة مستقرة ، شأنهم في ذلك شأن من تضطره ظروف العيش إلي الهجرة ، بجانب رغبتهم في حمل راية الاسلام الي مناطق جديدة ، بعيدة عن متناول أيدي المسلمين حتي ذلك الوقت .

وكان أكثرهم من الشباب ، فكافحوا وناضلوا في سبيل الاستقرار والعيش في هدوء كفاحاً صادقاً ، وكونوا أسراً ، وجمعوا ثروات ، وبمرور الأيام أقبل زعماؤهم علي الزواج من سكان الجزيرة،فاتصلت الانساب ، وتوثقت روابط الدم وعمت المساواة ، وسادت علاقات من الود والتعاون والتراحم بين الناس أدت إلي إزدهار الحياة في الجزيرة ازدهاراً كان من شأنه أن يؤدي إلي طراوة العيش وازدياد عدد السكان بعد الذي اصابها من انحلال وتدهور ، ثم فقر ونقص في

(١) النعمان : أبوحنيفة المغربي : المجالس والمسايرات جـ٢ لوحة ٤١٦ مخطوط بجامعة القاهرة .

عدد السكان [١] .

ونظرا لموقع اقريطش البحري ، ولطبيعة الأندلسيين المسلمين الذين مارسوا هذا العمل البحري الجريء ،كان عليهم دائما الأحتفاظ باسطول قوي ليدعم وجودهم في الجزيرة ، ولذلك نراهم بعد استقرارهم هناك يتجهون الي الاستفادة من اخشابها في صناعة السفن ، فأنشأوا اسطولا ضخماً ، وبدأت بفضله سيادة المسلمين [٢] تنتشر علي البحر المتوسط الشرقي ، وتحدي الأندلسيون الوجود البيزنطي مدة بقائهم في الجزيرة وأثبتوا أنهم شوكة في حلقة ، واعقبوا وتناسلوا علي حد قول النويري [٣] .

محاولات فاشلة لاسترداد اقريطش

ادرك البيزنطيون مدي الخسارة التي حلت بهم نتيجة لفقدانهم إقريطش ، وعوّل الامبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠- ٨٢٩م)/ ٢٠٥- ٢١٤ هـ) علي انتزاعها من أيدي العرب المسلمين ، فقد أدرك هذا الأمبراطور مدي الخطر الذي سيلحق بالممتلكات البيزنطية نتيجة استيلاء المسلمين علي هذه الجزيرة ، إذ آن موقعها الاستراتيجي الهام يتيح لها التحكم في مداخل البحر الإيجي ، كما يهيء لهم السيطرة علي جزر وسواحل هذا البحر ، وتهديد سواحل اسيا الصغري وبلاد اليونان ، هذا الي جانب الخسارة الاقتصادية التي تتعرض لها

(١) د. زينب راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ٢١
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم ، د. احمد العبادي : تريخ البحرية الاسلامية ص ٨٤ .
(٣) نهاية الأرب جـ٢٠ ص ٢٥٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

الدولة البيزنطية بفقدها مثل هذه الجزيرة الغنية بمواردها الطبيعية فضلا عن تهديد المسلمين بإقريطش لتجارة بيزنطة في عالم البحر المتوسط . ففكر الامبراطور في استردادها يعتبر أمرا عاديا خاصا وأن احوال البيزنطة الداخلية والخارجية آنذاك كانت تسمح بالقيام بمحاولات في هذا المجال (١) ، فقد اخمدت الفتن الدينية الداخلية ، وقضي علي الاضطرابات الداخلية ، كما تمت بينهم وبين البلغار هدنة تعرف بهدنة الثلاثين عاماً والتي عقدت سنة ٨١٤م / ٢٠١ هـ ، كما أن جيرانهم الروس لم يسببوا للأمبراطورمتاعب. كما ساد الهدوء مع العباسيين في جبهتهم الشرقية لانشغال الخليفة المأمون بقمع الفتن والثورات الداخلية .

ولذلك اتخذ الإمبراطور ميشيل الثاني (ميخائيل) عدة تدابير لاسترجاع جزيرة إقريطش تمثلت في ثلاث محاولات حاول بها الإمبراطور طرد المسلمين من الجزيرة ، ورغم ضآلة المعلومات حول هذه المحاولات إلا إننا نحاول القاء الضوء عليها .

(١) ففي سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م أصدر الامبراطور أوامره الي القائد البيزنطي فوتيناس Photinas حاكم ثيم اقليم الأناضول وهو ممن ينتمون إلي أعرق الأسرات البيزنطية ـ فهو الجد الثالث للأمبراطوره.. نروي ام قسطنطين البوثيري ـ حيث أمره بالتوجه لتخليص إقريطش من قبضة المسلمين . (٢)

(١) راجع د/ اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ٩٦
(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٦٠

ويبدوا أن هذه الحملة كانت صغيرة ، وغير كاملة الاستعدادات والدليل علي ذلك أنه بعد وصول فوتينوس باسطوله بالقرب من اقريطش ورأي إستعدادات المسلمين بها تأكد لديه بأنه امام خصم من الصعب التغلب عليه ، فأرسل يطلب المدد من القسطنطينية فأردفه ميخائيل بقوات حربية تحت قيادة داميان المشرف علي الأسطيلات الأمبراطورية .

وبعد وصول هذه الامدادات تقابل الطرفان الاسلامي والبيزنطي انتهت بانتصار ساحق لمسلمي إقريطش ، وأسر داميان اما فوتينوس فقد استطاع الفرار من المعركة الي جزيرة ديا Dia شمال الخندق ، ومنها اتجه الي القسطنطينية يجر اذيال الخيبة والهزيمة . (١)

وهكذا فشلت أول محاولة بيزنطية لاسترداد الجزيرة بعد فتح المسلمين لها بوقت قصير .

(٢) لم تؤثر هذه الهزيمة في افكار ميخائيل أو تحطم آماله،فلم ينحني أمامها ، بل صمم علي إعادة الكرة ، وازالة نفوذ المسلمين عن الجزيرة مهما كلفه ذلك ، قبل أن يشتد عودهم ويقوي بأسهم ويصبحون خطراً في عاصمته ، ولذلك جهز حملة بحرية تتألف من سبعين سفينة حربية جمعها من موانى آسيا الصغري التي اشتهرت بشجاعة بحارتها ، وجودة تدريبهم ، وجعل علي قيادتها كراتيروس حاكم ثيم كبير هايوت علي الساحل الجنوبي لآسيا الصغري (٢)

(١) د. العدوي : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع ص ٦١ .

(٢) د. إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٠١

وطلب منه تحطيم قوة المسلمين دون هواده .

انطلق كراتيروس بهذا الاسطول في اتجاه اقريطش ، وتمكن من النزول بأرض الجزيرة فعلا ، ولم تحدد المراجع بالدقة المكان الذي نزلت فيه الحملة ، ولكنها اشتبكت مع القوات الاسلامية في قتال عنيف من مطلع الشمس الي مغيبها، وكان صمود المسلمين رائعا طوال النهار ولكنهم ضعفوا عند المساء،فاستطاع البيزنطيون الحاق الهزيمة بهم ، وايقاع بعضهم في الأسر،والاستيلاء علي كثير من الأسلحة ، ولما حل الظلام انسحبت فلول المسلمين إلي داخل الجزيرة ، لجمع شملهم ، واصلاح أمرهم ولم يتعقبهم البيزنطيون ظنا منهم أنهم أنزلوا بهم هزيمة منكرة لن يقووا بعدها علي منازلتهم ، أو أنهم خشوا أن يكون ذلك خديعة لاستدراجهم إلي الداخل فلم يتعقبوهم ، ولو تتبعوهم لاستطاعوا هزيمتهم ، بل والقضاء علي الموجودين في الجزيرة من المسلمين ، ولكنهم فرحوا بما أصابوه ، ثم اقلعوا عن القتال حتي صباح اليوم التالي حيث قضوا ليلتهم سكاري اعتقادا ان هذه النصر والظفر كفيل بارهاب المسلمين أو أنهم لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، أو عدم جرأتهم علي العودة إلي اطراق الجزيرة مرة أخري .

ولكن العرب اغتنموا هذه الفرصة فأسوا جراحهم ، ولموا شملهم ، ونظموا صفوفهم ، وعادوا إلي المعسكر البيزنطي حيث عملوا السيف في رقاب السكاري ويقال إنهم ابادوار جال الحملة

عن آخرهم (١) .

أما القائد كراتيروس فقد تمكن من الفرار علي ظهر سفينة تجارية الي جزيرة كوس Cos ، وحين تنبه المسلمون لفراره سارعوا باللحاق به وأدركوه هناك فاعادوه الي الجزيرة حيث تم إعدامه شنقا .

ويلقي المؤرخ البيزنطي (جينيزيوس) مسئولية الهزيمة علي عاتق كراتيروس ، ويصفه بالجبن والتكاسل ، ويوضح أنه أمر رجاله بعدم مطاردة المسلمين وتأجيل ذلك حتي صباح اليوم التالي (٢) .

(٣) وعلي الرغم من هذه الهزائم الشديدة المتلاحقة التي منيت بها القوات البيزنطية فلم يثن ذلك من عزم الامبراطور ميخائيل الثاني عن استرداد جزيرة اقريطش . فهو من الرجال الذين تصهرهم الشدائد ، وتزيد من قوتهم وعنادهم واصرارهم للإقدام علي عظائم الإمور ، فلم يعترف بهزيمة أمام مسلمي الجزيرة وإنما قرر إرسال حملة ثالثة أقوي من سابقتيها عله يستطيع أن يضع بها نهاية الحكم الاسلامي فيها .

لذلك نراه قد عهد الي أوريفاس Oryphas بقيادة حملة تضع نهاية للوجود الاسلامي هناك .

---

(١) د/ إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٠٠

(١) المرجع السابق - نفس الصفحة .

وقد حدد فازيليف تاريخها خلال عامي ٨٢٨- ٨٢٩م/ ٢١٣-٢١٤هـ (١) وقد أجزل الامبراطور العطاء للمشتركين في هذه الحملة كوسيلة لرفع معنوياتهم التي لابد وأن تكون قد تأثرت نتيجة لما أصاب الحملتين السابقتين من فشل ذريع ، فأعطي كل واحد من المشتركين فيها أربعين قطعة ذهبية ، وليستحثهم بها على القتال ، وليغري غيرهم ، ولكن الذهب لا يجعل الجبان شجاعاً ولم تكن هذه الحملة أحسن حالاً من سابقتيها ، فلم تستطع إلا إحتلال بعض الجزر الصغيرة المحيطة بها دون أن تنزل الجزيرة (٢)

فهي لم تحقق هدف ميخائيل الذي تيقن أنه لافائدة من عودة إقريطش إلي حوزة امبراطوريته كما توهم ، لذلك نراه يوجه همه للدفاع عن جزيرة صقلية التي نزلها الأغالبة وساعدهم البحريون الأندلسيون في إقريطش علي احتلال مواقع فيها وطلب النجدة من البندقية .

ونتيجة هذا الفشل المنكر قصرت أيام ميخائيل ، ولم به العمر ، فما كان شهر اكتوبر ٨٢٩م/ ٢١٤ هـ حتي لفظ انفاسه الأخيرة كمداً وحسرة لأنه لم يحقق هدفه في استرداد الجزيرة.

نتائج فشل محاولات ميخائيل

كان من أهم نتائج فشل محاولات ميخائيل الثاني الثلاث هي:-

(١) العرب والروم ص ٦١
(٢) د/ ابراهيم العدوي: الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٠

(١) تأكيد سيطرة المسلمين علي إقريطش ومواصلة فتوحاتهم بها.

(٢) غزو السواحل والجزر البيزنطية المجاورة .

أسباب فوز المسلمين :

مما لاشك فيه أن الهزائم المتتالية التي ليقيتها القوات البيزنطية علي يد الفاتحين المسلمين تدعو للتساؤل عن العوامل والاسباب - الحقيقية التي أدت إلي اخفاق هذه الحملات رغم أن الفتح الاسلامي للجزيرة كان لا يزال في مرحلته المبكرة ، ولم يكن المسلمون قد ثبتوا أقدامهم بعد في هذه الجزيرة ، فكيف استطاعوا أن يحرزوا مثل هذه الانتصارات علي البيزنطيين ، وأن يلحقوا بحملاتهم الهزيمة تلو الأخري ؟

إن ذلك يرجع في الغالب إلي أسباب منها :-

(١) الروح الدينية الوثابة التي تهفو إلي الجهاد في سبيل الله بالروح والمال ، لاعلاء كلمة الله في أرض جديدة ، وقد سيطرت روح الجهاد عليهم ، وتمكنت من نفوسهم إلي درجة كبيرة ، حتي ان ابن حوقل الرحّالة المعاصر للأحداث قال : (إنهم في غاية الجهاد) (١)

(٢) الرغبة الأكيدة لهؤلاء المجاهدين في محافظتهم علي هذا الكسب الجديد الذي امتن الله به عليهم ، ممادفعهم إلي الإستماتة في الدفاع عنه .

(١) صورة الأرض ق ٢ ص ٢٠٤ ط ليون سنة ١٩٣٨م .

(٣) وهناك سبب يتصل بالجانب البيزنطي فهم بعد لم يأسوا جراح الحرب الأهلية التي انهكت قواهم ، وعادت بأسوأ النتائج العسكرية والاقتصادية . وقد اضطر الامبراطور للقيام بهذه المحاولات حرصا علي استرداد جزيرة اقريطش قبل أن يوطد المسلمون نفوذهم بها .

(٤) انشغال الامبراطورية البيزنطية بميدان قتال آخر مع المسلمين في جزيرة صقلية الذي بدأ سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ م حين بدأ زيادة الله بين الأغلب سلسلة محاولاتهم للسيطرة عليها بارسال حملة بقيادة أسدبن الفرات مما أجبر ميخائيل علي تشتت جهوده العسكرية ، وعدم تركيزها علي إقريطش [1] فانفرد عرب الجزيرة بالعمل وحدهم لا يخافون تهديداً ولا يخشون خطراً ثم انتقل زمام المبادرة اليهم ، فردوا علي الهجمات السابقة بهجمات مضادة ، سنتاولها في النقطة التالية .

نشاط المسلمين في إقريطش

علي أن السياسة الحربية النشطة التي انتهجها ميخائيل الثاني والخاصة بالمحاولات المستمرة لاستعادة كريب لم تلبث ان أصيبت بنكسة في عصر خلفه ثيوفيل (٨٢٩- ٨٤٢م / ٢١٤ - ٢٢٧ هـ) حيث لم نقرأ عن أية محاولة قام بها ضد إقريطش ، رغم الغارات العديدة التي قام بها المسلمون في الجزيرة علي ممتلكات الامبراطورية

(١) راجع : الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٨٨ ، ابن عذاري البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

البيزنطية ، وبخاصة في الأيام الأولي من عهد هذا الإمبراطور.

فمجرد أن تولي ثيوفيل العرش في اكتوبر ٨٢٩م (شعبان ٢١٤هـ خرجت من كريت حملة بحرية قوامها ٥٠ سفينة حربية هاجمت شواطئ أيونيا Iona وكاريا علي الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغري ، كما هاجمت أديرة الرهبان في جبل أتوس Atus وقد ترتب علي هذه الهجمات إن هجر الرهبان صوامعهم وفرّوا طالبين السلامة لأنفسهم (١) .

وفي نفس العام (٢١٤هـ) أبحر اسطول من جزيرة اقريطش وهاجم سواحل تراقيا ، واستولي منها المسلمون علي غنائم وفيرة ، وعلي العديد من الأسري ، وفي طريق عودتهم فاجأهم حاكم ولاية تراقيا ويدعي قسطنطين كونتوميتس Constantinus Contomytes واشتبك معهم في معركة بحرية ، دمر فيها الأسطول الإسلامي ،حيث سقط كثير من الشهداء .

ولم تفت الهزيمة في عضد المسلمين ، فبعد وقت قصير من المعركة عاود المسلمون إغارتهم ، واثناء احدي الغارات علي جزر السيكلاديز تقابل الاسطول الكريتي في طريق العودة مع اسطول بيزنطي عند جزيرة تاسوسي احدي جزر البحر الايجي - واوقع الاسطول الإقريطشي بالاسطول البيزنطي هزيمة مروعة ، حيث اصابه التدمير التام .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٨ م استولي مسلموا اقريطش علي برنديزي

(١) د/ اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١١٠ ، فاسيليف : العرب والروم صـ ٨٥ - ٨٦ .

بأسطول من مسلمي كريت أو من شمال افريقيا أو من كليهما معاً [١] ولما حاول البنادقة الثأر لهذه الهزيمة ، وجهزوا اسطولا من ستين سفينة للدفاع علي اقليم برندي حطمه العرب المسلمون عند كروتوني علي خليج طارنت سنة ٢٢٦ هـ / ٨٣٩م . كما احرزونصرا حاسماً بتدمير الاسطول البيزنطي في نفس العام قرب جزيرة فاسوس Phasos [٢] كما استطاع العرب في اقريطش من فتح كاندانت عام ٢٢٧هـ / ٨٤٠م ، وهي قاعدة بحرية هامة علي مدخل البحر الادرياتيكي . وتولي عرب كريت حكمها بعد ذلك حيث امتد حكمهم لها حوالي أربعين سنة . [٣]

ورغم هذه المحاولات التي قام بها المسلمون في اقريطش الإسلامية علي الممتلكات البيزنطية ، لم يبدل الامبراطور البيزنطي ثيوفيل جهداً كبيرا في تجريد أية حملة بحرية بقصد استرداد الجزيرة امتداداً لسياسة والده ميخائيل الثاني ، وربما كان انشغاله مع العباسيين - في منطقة الحدود بينهما قد استغل ظروف العباسيين - المأمون - ومحاولة قمعهم الفتن الداخلية واستولى ثيوفيل علي زبطرة ، وأغار علي المصيصة وطرسوس ، ولذلك كان رد الخليفة المأمون عليه عنيفا حين جرد الحملات الحربية اليه فقضت مضجعة ، واذا مَتِه مرارة الهزيمة اكثر من مرة) وقلمت أظفاره ومهدت الطريق لفتح عمورية [٤]

(١) د. الخربوطلي : البحر المتوسط بحيرة عربية ص ٦٥
(٢) طرخان : المسلمون في اوربا ص ٨٦
(٣) الخربوطلي : الاسلام في حوض البحر المتوسط ص ١٩٢، المسلمون في أوربا ص ٢١٤ .
(٤) راجع عن هذه الأحداث تاريخ الطبري جـ١٠ ص ٢٨٠-٢٨٣ ، ٢٩٣، ٣٣٥ ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٩٢ .

كانت الأحوال علي الحدود بين الدولتين غير مواتية لكي يرسل ثيوفيل بحملات الي اقريطش ، فلم يتمكن لذلك من معالجة مشاكله منها ، وطرد المسلمين منها .

ورغم أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وافية عن موقف مسلمي كريت خلال الفترة التي انشغل فيها البيزنطيون بحروبهم مع العباسيين ، فمن الراجح انهم استغلوا هذه الفرصة ، وواصلوا غاراتهم علي الأراضي البيزنطية القريبة منهم ، أو أنهم يكونوا قد نعموا بفترة من الهدوء والاستقرار النسبي ، ثم عادوا فتوحاتهم في الجزيرة ومحاولة استخلاصها تماما لأنفسهم ، في القضاء علي النفوذ البيزنطي فيها (١) اذ يذكر أبو المحاسن نصاً يفهم منه ان المسلمين أتموا فتح اقريطش في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤م)(٢) ، والجزء الأخير من مرحلة الفتح هذه يغطي كل عصر الامبراطور ثيوفيل .

وهنا يتبادر الي الذهن سؤال يقول : هل ثمة اتفاق بين مسلمي إقريطش والخلافة العباسية في بغداد لفتح جبهة جديدة في الجهاد ضد البيزنطيين في الوقت الذي شغلوا فيه بالهجوم علي أراضي الدولة العباسية في الشرق ؟

الواقع إننا لا نستطيع الجزم بعقد مثل هذا الاتفاق ، فضلا عن أن الجانب البيزنطي هو الذي بدأ هذه الحروب ، مستغلا الظروف السياسية الحرجة التي تعرضت لها الدولة العباسية آنذاك .

---

(١) د / إسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت ص ١٢١

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٧

لذلك فإن الأمر علي ما يبدو لايعدو أن يكون مجرد ظـــروف سياسية طارئة ظهرت علي مسرح الحوادث في هذه الفترة من الزمـن أو هيأتها أحداث معينة خاصة بالدولتين العباسية والبيزنطيـــة واستغلها مسلمو إقريطش لصالحهم ، ولا يستبعد كذلك ان يكـــون المسلمون في اقريطش قد حاولوا الوقوف مع العباسيين المسلميـــن - الخاضعين لهم - ضد العدو المشترك للإجهاز عليه بدون اتفاق مبـرم سوي الشعور الاسلامي الذي يربطهم .

ولذلك كان للهزائم التي انزلها المسلمون في اقريطش بالدولـة البيزنطية منذ بداية فتحهم للجزيرة ، وحتي ذلك الوقت_اسوأ الأثـر في نفس الامبراطـــور ثيوفيل وزاد من شعوره بالمرارة الضربـات العنيفة التي انزلها به العباسيون في اسيا الصغري ، فأدرك حينئـذ انه لا قبل له بمواجهة المسلمون ، لذلك نراه يطلب المساعدات مـن الخارج ، وإن كانت من المسلمين ضد المسلمين ، فقد أشار المقري المؤرخ المغربي المعروف إلي سفارة أرسلها الامبراطور ثيوفيل الـي الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني (٢٠٧- ٢٣٢ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م) وذلك في عام ٢٢٥هـ / ٨٤٠م) ، ولم يعرض المقري لتفاصيل هـــذه السفارة ، وإنما أشار اليها في عبارات مقتضبة ، حيث ذكر أن - توفلس (ثيوفيل) أرسل للأمير عبد الرحمن يطلب مواصلته،ويرغبـه في ملك سلفه بالمشرق (١) .

وقد رد الخليفة الأموي عليه رداً مفصلا عن كل نقطة من رسالتـه

---

(١) نفح-الطيب جـ (صـ ٣٢٤ .

وفُهِم من الرد الذي نشره ليفي بروفنسال أن الامبراطور طلب منه التعاون العسكري ضد العباسيين وجزيرة كريت (اقريطش) حيث طلب منه وضع حدّ لغارات أهل كريت ضد دولته . وقد أرسل الخليفة الأموي سفارة علي رأسها يحيي الغزال ، ويحيي بن حبيب المعروف بصاحب المنيقة ، فلما وصلت السفارة الي القسطنطينية قوبلت بحفاوة وترحيب بالغ ، حيث أدي يحيي الغزال سفارته علي خير وجه،وعمل علي توثيق الصلة والمودة بين الطرفين ، أو علي حدّ تعبير المقري (فأحكم بينهما الوصلة) (١)

ويطرأ علي الذهن سؤال عن دوافع هذا التحالف بين ثيوفيل وعبد الرحمن الثاني . والإجابة تتضح إذا علمنا أن هناك عوامل ساعدت علي هذا التحالف ومنها :-

(١) تباعد الحدود بين الأندلس والدولة البيزنطية ، وبالتالي عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين ، مما أدي الي ارتباطهما بعلاقات تقليدية تقوم علي الود والصداقة المتبادلة .

(٢) ادراك الامبراطور البيزنطي لطبيعة العداء المستحكم بين الأمويين في قرطبة والعباسيين في بغداد .

(٣) تفهم ثيوفيل للحزازات الموجودة بين حكام الأندلس وبين مسلمي إقريطش فقد أضحي لهؤلاء من رعايا العباسيين بعد طردهم من الأندلس ، فهم في نظر الأمويين متمردين وثوار خونه يحق عقابهم ، والنيل منهم إذا واتتهم فرصة .

(١) فتح الطيب جـ ١ صـ ٣٢٤ .

(٤) لعل النهضة[١] التي بلغتها الدولة الاسلامية في الاندلس في شتى المجالات في عهد عبد الرحمن الثاني هي التي شجعت الامبراطور البيزنطي علي خطب وده والقيام تحالف بينهما .

إلا أن هذا المشروع لم ير النور ، نظرا لتطورات التي مرت بالدولتين ، فقد تعرضت بلاد الأندلس لغارة كبيرة من قبائل الفيكونج[٢] الذي قدموا علي متن ثمانين سفينة نزلت علي الساحل الغربي للبلاد في لشبونة وفارس ، وفشذونة ، واتجهوا إلي اشبيليه فشغل عبد الرحمن الثاني برد الهجوم الكاسح عن مشروع التحالف البيزنطي ، كما أن المنية انشبت اظافرها في ثيوفيل في ٢٩ ربيع الأول ٢٢٧ هـ / ٢٠ يناير ٨٤٢م بعد اشتداد الحمي به . وتولي ابنه ميخائيل العرش تحت مجلس وصاية ، حيث كان في السادسة من عمره[٣] .

وكانت ظروف الدولة البيزنطية بعد موت ثيوفيل قد صرفتها عن التفكير الجدي في القيام بحملة جديدة ضد كريت

حملة فاشلة :

بعد استتباب الأمور نسبيا في الدولة البيزنطية واستقرار الأحوال فيها ، قرر المسئولون القيام بحملة علي اقريطش بقصد استعادتها فأعدت قوات كثيرة ، وسفن عديدة لهذا الغرض ، وقد ابحرت فعلا

(١) راجع عن هذه النهضة ابن عذاري : البيان المقرب جـ٢ص ١٣٥-١٣٦
(٢) راجع عنهم وعن نشاطهم أوربا في العصور الوسطي لعاشور جـ١ ص ٢١٨-٢٤٧ ، تاريخ افتتاح الاندلس للقرطبي ص ٨- ٨٦

وقد انسحب البيزنطيون بعد أن ملأوا سفنهم بالأموال والمتاع والسبايا ، واتجهوا نحو اشتوم تنيس فخربوه ، وانتزعوا بابيه المصنوعين من الحديد ، وحملوهما معهم ، ثم رحلوا الي بلادهم بما غنموا (١) .

ولما علم عنبة بهذه الغزوة أقبل بجند مصر الي دمياط ولكنه وصل متأخرا ، إذ كان البيزنطيون قد تركوا المدينة الي اشتون تنيس فأقاموا بها فترة ، وقد تقاعس عنبة عن متابعتهم أو اللحاق بهم هناك إما خوفا منهم ، أو يكون قد تأكد لديه أنهم لا يقيمون طويلا ، ففضل عدم متابعتهم ، لذلك كان لهذا الموقف المتخاذل من الوالي أثره العام ، فقد عدّ ذلك عجزا أو تهاونا وتقاعسا عن أداء ، المهمة والقيام بالواجب المنوط به ، لذلك نري الشاعر يحيي بن الفضل ينشد قصيدة يخاطب بها ابا توكل معرضا بهذا الموقف ، وكان ما قاله

أترضي بأن يوطأ حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتي دمياط والروم وثب ... بتنيس رأي العين منه وأقرب
يقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبرا اولادري ... من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيفة ... بمصر وان الدين قد كان يذهب (٢)

ومما يدل علي أن تلك الحملة كان يقصد بها اهدافا أوسع من السلب الذي جرت عليه الغارات التقليدية اذ ذاك ، فأنها

(١) تاريخ الطبري جـ١١ ص ٤٨، خطط المقريزي جـ١ ص ٣٤٦ .
(٢) خطط المقريزي جـ١ صـ ٣٤٦ ، الولاة والقضاة ص ٢٠١ .

كانت جزء من سياسة الروم ازاء اسطول اقريطش ، ان الجنـــد استولوا علي المؤن والذخيرة التي كانت معدة للشحن وارسالهـــا الي اقريطش ، ثم احرقوا أشرعة السفن المكدسة في المخازن البحرية بدمياط (١).

ومن جانب آخر كان لهذه الحملة أثر كبير في الاهتمام بدميـاط باعتبارها هدفـا للبيزنطيين .

وقد علق المقريزي علي ذلك بقوله :

(فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهـــم ما يعمل بمصر، وانشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلـــت الأرزاق لغزاة البحر ، كما لغزاة البر ، وانتدب الأمراء لـــه الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميـــع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون لمحاربة العـــدو وكان لا يترك في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحـرب هـذا ، وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد اعداء الله واقامة دينـــه لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد مـــن الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعي بالوسائل حتي يستقـــر فيه) (٢)

كما أمر الخليفة المتوكـل ببناء حصون علي ساحل البحر الأبيض المتوســط لصد غارات الروم ، حيث ابتديء في بنائه يوم الأثنيـــن

(١) د. سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٩٠-٩١
(٢) خطط المقزيزي جـ ١ صـ ٣٣٦ ومابعدها .

لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩هـ / فبراير ٨٥٤م [١] كما شيد حصنين آخرين أحدهما في الفرماء والآخر في مدينة تنيس [٢] .

ولذلك علمت المصريين هذه الاعمار ، الاهتمام الدائم واليقظة التامة ، والحرص البالغ وشحن السفن بالمقاتلة [٣] ، انتظارا لما يستجد من غارات .

وهكذا ارتبط مسلموا اقريطش بمسلمي مصر من أجل هدف واحد وغاية واحدة هي نشر الاسلام والمحافظة علي القوة الاسلامية الفتية في مواجهة العدو اللدود المتمثل في الامبراطورية البيزنطية كما وضح أن درأ الخطر يتطلب استعدادات خاصة ، قد تصل الي مدي بعيد .

دكتور
عبدالرازق الطنطاوي القرموط
استاذ مساعد ورئيس قسم التاريخ
والحضارة

---

(١) المرجع السابق .
(٢) د/ سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٩١
(٣) فتحي عثمان : الحدود البيزنطية ج ٢ ص ٢٢٠